سلسلة: علماء الإسلام وملحمتهم التقويمية عبر التاريخ

مقدمات نحو صياغة أنموذج منظوري إرشادي إسلامي عام في الفقه والعلوم

(5) صناعة الفقه: التهجينية الغزالية

الحلقة الثانية

2) نداء المرقعة والخرقة

ظل **أبو حامد الغزالي** يدرس بالمدرسة **النظامية بغداد** إلى سنة 488 هـ، وهو يتوجس خيفة من **الحشاشين** أن يصيبوه ببعض مكروه، ما داموا قد استطاعوا الوصول إلى ولي نعمته الأكثر حرَساً ونجدة: **نظام الملك**، فاغتاله أحدهم بحيلة منهم.

وسوف تعتري الغزالي خلال هذا الحقبة من حياته، كما سيعترف بذلك لاحقاً، **أزمة نفسية حادة**، سيضطر على إثرها إلى ترك التدريس والتمويه بأنه قاصد للحج، بينما هو يروم الرحيل خلسة إلى **بيت المقدس** في ذي القعدة من نفس السنة، أيام السلطان **بركياروق** (487 هـ - 498 هـ)، نجل ملكشاه السلجوقي ، ثم منه إلى **الشام** في سياحة حرة، وليظل معتكفاً على طريقة الصوفية ب **المنارة الغربية** 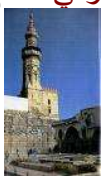 من **الجامع الأموي بدمشق** لمدة عشر سنوات **بالتمام**.

وقد حصلت أول الحملات الصليبية على الشام (491 هـ/ 1097 م - 493 هـ/ 1099 م)، أثناء اعتكافه هذا، وكانت مكونة أساساً من النورمان والبروفنساليين.

وقاد البروفانساليين ريمون الرابع الطلوسي *(Raymond IV of Toulouse)* ***(صورة متخيلة له)*** [1]، **الذي شارك بأكبر عدد من الجند في هذه الحملة (8500 راجل و1200 من الخيالة، ضمن حملة مكونة من حوالي 35000 صليبي)، مصحوباً بممثل البابا الأسقف:** أديمار المونتيلي **(*Adhemar de Monteil*) (ت: 1098 م)** ، وبوهموند الطرانتوي **(*Bohemond of Taranto*) (1058 م – 1111 م)** **قائد الحملة، ممثلاً ل نورمان جنوب إيطاليا مصحوباً بابن أخته:** تانكرد **(*Tancred*) (1072 م – 1112 م)** ، **وقاد اللورينيين الإخوة:** غودفري البويوني **(*Godfrey of Bouillon*) (1060 – 1100 م)** ، **وأوستاس الثالث البولوني (*Eustace III of Boulogne*) (ت: 1125 م)** **وبالدوين البولوني (*Baldwin of Boulogne*) (1058 م – 1118 م)، الذي سيتوج نفسه ملكاً على القدس بعد احتلالها** ، **بينما انضوى تحت قيادة كل فرنسيو الشمال من:** الكونت روبيرت الثاني الفلاندري **(*Robert II of Flanders*) (1065 م – 1111 م)** ، **وروبرت كورطوز (Robert Curthose) (1051 م – 1134 م)** أو روبرت

---

[1] ريمون الرابع الطلوسي (Raymond IV of Toulouse) أو ريمون دو سان جيل (Raymond of St Gilles) (ويطلق عليه المؤرخون المسلمون اسم ريموند صنجيل) (1141م - 1105 م) هو دوق إقليم ناربون (Narbonne) في فرنسا وماركيز قوطيا (Gothie)وبروفانس (Provence). إشترك في الحملة الصليبية الأولى وشارك في حصار القدس سنة 1099 والاستيلاء عليها. له **ترجمة في ويكيبيديا:** {http://en.wikipedia.org/wiki/Raymond_IV_of_Toulouse}.

النورماندي (*Robert of Normandy*) (تمثاله في كاتدرائية غلوسيستر بلندن) ،

الأخ الأكبر لملك بريطانيا: ويليام الثاني (William II) (1056 م – 1100 م)، وصطيفان كونت بلوى (*Stephen, Count of Blois*) (1045 م – 1102 م) ، وهاف الأول الفيرماندوي (*Hugh I of Vermandois*) (1053 م – 1101 م)، **الأخ الأصغر لملك فرنسا:** فيليب الأول (*Philip I*) (*1052 م – 1108 م*) ، **الذي حمل راية** البابا، **ولم يشارك** الملك فيليب **نفسه، بسبب الحرم الصادر في حقه من طرف البابا.**

قلت:

وقد تمكن الصليبيون من احتلال مدينتي: نيقية **والرها سنة 491 هـ/1097 م، ثم** أنطاكية **سنة 492 هـ/1098 م، ثم** القدس **سنة 493 هـ/1099 م، بعد حصار لها دام أربعين يوماً ذبحوا من سكانها 70 ألفاً** وجمعوا اليهود في كنيس واضرموا فيهم النار، **ثم توجوا** غودفري البويوني **ملكاً عليها ورجع بعضهم إلى أوطانهم.**

وهكذا تم لهم إنشاء إمارة بمدينة أنطاكية، امتد بها العمر إلى أن استردها حاكم مصر المملوكي الظاهر

بيبرس سنة 667 هـ/ 1268 م، وأخرى على بيت المقدس امتد بها العمر إلى أن

استعادها صلاح الدين الأيوبي صلحاً سنة 583 هـ/1187 م،..

قلت:

والغريب في أمر أبي حامد الغزالي رحمه الله، هو أن كل هذه الأحداث الجسام، لم تحرك فيه ساكناً !، ولا أورد

لها من ذكر في كتبه التي ألفها بعد الرجوع من عزلته ككتاب: "المنقذ من الضلال" وغيره. بل ظل على **عزلته!** وخلوته! وأوراده! في صومعته يؤلف كتابه "إحياء!!! علوم الدين" الذي سمعه منه تلميذه المغربي أبو بكر بن العربي المعافري الأندلسي (ت: 543 هـ) في لقائه الثاني به هنا، بعد أن كان قد عرفه في عز مجده وتليد تألقه في نظامية بغداد.

وسيواصل الغزالي اعتكافه ب خرقته وعكازه غير عابئ بما يجري حوله من أحداث إلى سنة 499 هـ، أي أربع سنوات أخرى بعد احتلال بيت المقدس، قبل أن يقفل راجعاً إلى بغداد أيام السلطان محمد بن ملك شاه (498 هـ - 511 هـ).

ولنستمع إلى الغزالي وهو يصف لنا السبب الذي دعاه إلى ترك عزلته الأولى هذه بقوله[2]:

فلما رأيت أصناف الخلق قد ضعف إيمانهم إلى هذا الحد بهذه الأسباب، ورأيت نفسي ملية بكشف هذه الشبهة، حق كان إفضاح هؤلاء أيسر عندي من شربة ماء، لكثرة خوضي في علومهم وطرقهم – أعني طرق الفلاسفة والصوفية والتعليمية والمتوسمين من العلماء – انقدح في نفسي أن ذلك متعين في هذا الوقت، محتوم.

[2] الغزالي: "المنقذ من الضلال" ص. 48. طبعة بيروت لسنة 1950 م.

فماذا تعينك الخلوة والعزلة، وقد عمّ الداء ومرض الأطباء، وأشرف الخلق على الهلاك ؟. ثم قلت في نفسي: "متى تشتغل أنت بكشف هذه الغمة ومصادمة هذه الظلمة، والزمان زمن الفترة والدور دور الباطل، ولو اشتغلت بدعوة الخلق عن طرقهم إلى الحق، لعاداك أهل الزمان بأجمعهم، وأنى تقاومهم! فكيف تعايشهم؟، ولا يتم إلا بزمان مساعد، وسلطان متدين قاهر؟

فترخصت بيني وبين الله تعالى بالاستمرار على العزلة تعللاً بالعجز عن إظهار الحق بالحجة، فقدر الله تعالى أن حرك داعية سلطان الوقت من نفسه، لا بتحريك من خارج. فأمر أمر إلزام بالنهوض إلى **نيسابور**، لتدارك هذه الفترة، وبلغ الإلزام حداً كان ينتهي، لو أصررت على الخلاف، إلى حد **الوحشة**.

فخطر لي أن سبب الرخصة قد ضعف.

قلت:

ولم يمتد به المقام بطوس طويلاً، إذ جاءته دعوة من الوزير فخر الملك: علي بن نظام الملك تدعوه إلى القدوم إلى نظامية نيسابور للتدريس بها.

وهنا، سيلاحقه حظه التعس رحمه الله مرة أخرى مع هذه الأسرة الحاكمة، حيث كرر الحشاشون الشيعة في حق هذا الوزير ما كانوا قد نفذوا في حق **والده** نظام الملك رحمه الله سنة 485 هـ، وتمكنوا من اغتياله بعد سنة فقط من مقدم الغزالي، تماماً كما حصل له في أول تدريسه بنظاية بغداد!.

وقد اضطره حادث اغتيال فخر الملك، الذي لم يكن بالسلطان المتدين القاهر! حسب مأموله فيه، إلى المغادرة إلى بلدته طوس، ومعاودة حياة العزلة من جديد، فاتخذ إلى جانب بيته مدرسة للفقهاء، و"خانقاه" للصوفية، واشتغل بالوعظ والعبادة والتدريس والتأليف إلى أن وافاه أجله سنة 505 هـ/1111 م رحمه الله[3].

---

[3] بلغت مؤلفات الغزالي ما بين مطبوع ومخطوط ومفقود ومنحول حوالي 389 كتاب ورسالة حسب المستشرق موييس موييج في مجلة "الثقافة الإسلامية" ص. 183، العدد 10، لسنة 1407 هـ. وجزم عبد الرحمن بدوي بنسبة 69 منها في كتابه: "مؤلفات الغزالي" المطبوع بالقاهرة سنة 1961 م ص. 277-302. وحصرها جميل صليبا وكامل عياد على هامش تحقيقهما لكتاب "المنقذ من الضلال" ص. 38-50 طبعة دار الأندلس لسنة 1967 م، في 228 مؤلفاً ما بين مطبوع ومخطوط ومفقود عدا المشكوك في نسبتها إليه. وشملت موضوعات: العقائد، والفقه، والأصول، والتصوف، والفلسفة، والمنطق.

3) الغزالي منافحاً عن العقيدة بغشاوة

3.1) الرد على الباطنية

ولم تختلف معالجة الغزالي لهذا الفريق عن معالجة ابن حزم لها قبله[4]، لأن دوافعهما كانت واحدة، وإن كانت وطأة استفحال أمر الباطنية والفاطمية والإسماعيلية هي من حيث النشأة والتكوين، أشد وطأة في المشرق، موطنها الأصلي، منها في المغرب، الذي لم تنتقل إليه هذه الإشكاليات والمعاوص سوى ب التصدير.

وقد ذاق المغاربة من طعم هذا الرحيق العقائدي المشئوم أيام العبيديين الإسماعيليين، أثناء تواجهم ب

القيروان ب تونس عند قيام دولتهم، كما انتقل الفكر الغنوصي إلى الأندلس في نفس الفترة، في حركة محمد بن عبد الله بن مسرة القرطبي (269 هـ - 319 هـ) أحد دعاتهم، قبل عصر ابن حزم بأقل من قرنين.

قلت:

ولن ينقطع حبلهم بهذا، بل سيظهر ممثل آخر لهم بعد عصر ابن حزم بحولي القرن وهو: أبو القاسم أحمد بن الحسين بن قَسِي (ت: 546 هـ) على عهد المرابطين، أيام القاضي أبي بكر بن العربي المعافري (ت: 543 هـ) تلميذ أبي حامد الغزالي، الذي سيتولى محاربتهم ومنابذتهم بدوره.

وسوف يخصص أبو حامد الغزالي ك متكلم أشعري {أنظر على موقعنا: صناعة الفقه(3): التقويمية الأصولية الشافعية: كيف نشأ علم الكلام وكيف امتزج بأصول الفقه؟

} لهذا الجانب العقدي خمسة من كتبه الجدلية وهي كتب:

أ) "المستظهري"، الذي ألفه بطلب من الخليفة العباسي أحمد (المستظهر بالله) بن عبد الله (المقتدي بالله) بن محمد بن القائم بالله العباسي (470 هـ/1077 م - 512 هـ/1118 م)، و

ب) "مفصل الخلاف"،

---

[4] أنظر كتابنا ضمن هذه السلسة: "التقويمية الظاهرية في الفقه"

ت) و"حجة الحق"،

ث) و"الدرج المرقوم" (أو كتاب الجداول)،

ج) و"القسطاس المستقيم"، زيادة على ما أورد بخصوصهم في كتابه "المنقذ من الضلال" الذي ألفه مباشرة بعد عودته من عزلته في الشام.

قلت:

ولقد حظيت العقائد عند الغزالي، بموازاة هذا الجانب السياسي الداهم والملح، باهتمام كبير لديه أيضاً، حيث أفرد الكثير من كتبه، التي هي في غالبيتها، تجميع وتلخيص لكتب من سبقوه لمثل هذه الموضوعات وإن بأسلوبه الخاص والمميز، زيادة على ما خص به التعليمية والباطنية كما تقدم، مثل:

أ) "عقيدة أهل السنة"،

ب) و"فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة"،

ت) و"الاقتصاد في الاعتقاد"،

ث) و"الرسالة القدسية في قواعد العقائد"،

ج) و"المقصد الأسنى"،

ح) و"المضنون به على غير أهله" الذي يشك بعضهم في نسبته إليه[5]،

خ) و"كيمياء السعادة"،

د) و"الرد الجميل لإلهية عيسى بصريح الإنجيل"[6]، وغيرها.

قلت:

ولم يسلم الغزالي رحمه الله في ردوده على الباطنية، من التلبس بمنطقهم نفسه، كما سيأخذ عليه ابن تيمية رحمه الله وغيره.

يقول الغزالي في تعريف العلم اللدني[7]:

العلم الحاصل عن الوحي يسمى علماً نبوياً، والذي يحصل من الإلهام يسمى علماً لدنياً. والعلم اللدني هو الذي لا واسطة في حصوله بين النفس وبين الباري، وإنما هو كالضوء من سرج الغيب يقع على قلب صاف فارغ لطيف، وذلك أن العلوم كلها حاصلة معلومة في جوهر النفس الكلية الأولى!! الذي هو

---

[5] ذهب إلى ذلك غير واحد مثل: أبي عمرو بن الصلاح الشهرزوري والزبيدي والسبكي وابن عربي الحاتمي وغيرهم، لأنه اشتمل على القول بقدم العالم، ونفي علم الله بالجزئيات وهو ما كفر به الفلاسفة في "التهافت". وانظر ما قاله ابن عربي الحاتمي في: "محاضرة الأسرار ومسامرة الأخيار" (1: 159)

[6] وكان شيخه إمام الحرمين قد ألف كتاب: "شفاء الغليل في الرد على من بدل التوراة والإنجيل" وكلاهما مطبوع.

[7] الغزالي: "الرسالة اللدنية"، ص. 105، ضمن مجموعة رسائل الغزالي (3) دار الكتب العلمية، بيروت 1986.

في الجواهر المفارقة الأولية المحضة!! بالنسبة إلى العقل الأول!! كنسبة حواء إلى آدم عليه السلام!!!! وقد بُيّن أن العقل الكلي!! أشرف!!!! وأكمل!!!! وأقوى!!! وأقرب!!! إلى الباري تعالى!! من النفس الكلية!!. والنفس الكلية أعز!!!! وألطف!!!! وأشرف!!! من سائر المخلوقات، فمن إفاضة العقل الكلي يتولد الوحي!!!!!، ومن إشراف النفس الكلية يتولد الإلهام!!، فالوحي حلية الأنبياء والإلهام زينة الأولياء!!!!. فأما علم الوحي فكما النفس دون العقل فالولي دون النبي، فكذلك الإلهام دون الوحي، فهو ضعيف بنسبة الوحي قوي بإضافة الرؤيا!.

قلت:

وكل هذا الهرف والتخريف عن النفس الكلية! والعقل الكلي!،..إلخ.، كلام أفلاطوني

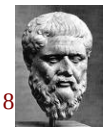

[8] محض، وفارغ من كل معنى أو دلالة لأنه لا وجود له في الواقع، على ما سيدمغ به الوضعانيون الأوروبيون لاحقاً الفلسفة الإغريقية برمتها، باختلاقها لإشكالات ترجع إلى أمراض اللغة وعدم الوضوح وليس لشيء آخر محايث، بينما وجدنا الغزالي هنا، كما في غير مؤلف من مؤلفاته، يخوض في هذه الترهات، وهذه المفاهيم الأسطورية والخرافية، ويتكلم فيها كلام الواثق من نفسه ومن معلوماته التخرصية هذه، وكأنها من صميم الوجود!.

أضف إلى هذا أن لا ورود لمثل هذه المفاهيم، لا في قرآن ولا في سنة كحقائق غيبية، تدرك أن لا فرق بين الغزالي والباطنية، وإخوان الصفا الذين أخذوها أصلاً عن الأفلاطونية المحدثة ب عقولها المفارقة وفيوضاتها التي لا تنتهي. وهي تخريفات محضة تليق بسمر العجائز، وبعقول العصافير!.

[8] أفلاطون) باليونانية) Πλάτων Plátōn) :عاش بين 427ق.م - 347ق.م (فيلسوف يوناني قديم, وأحد أعظم الفلاسفة الغربيين، حتى ان الفلسفة الغربية اعتبرت انها ماهي الا حواشي لأفلاطون. ترجمته من موسوعة ويكيبيديا.

وسوف يطعن القاضي أبو بكر ابن العربي **على آراء شيخه هذه في كتابه** "العواصم من القواصم" **، لهذه الحيثية التلفيقية بالذات، وليحذر من** "شكه"**!، ومن** "تصوفه"**!، ومن** "فلسفته"**!** وقلة بضاعته في الحديث.

قلت:

فالغزالي وحده، من بين كل **الشاطحين** في الإسلام، من يستطيع أن ينسب إلى الرسول ﷺ خبراً ظاهر الغثاثة والبطلان، باطني المصدر والمحتوى، دون أن يرمش له جفن!، مثل خبر[9]:

إن الله خلق الخلق من ظلمة ثم رشّ عليهم من نوره!!

وقد انتقده **ابن تيمية** رحمه الله، بعد أن خبر مراميه من خلال كتبه، فطعن في تفسيره المسمى "**مشكاة الأنوار**"، وطعن في **تصوفه**، وطعن حتى في أخص كتبه السلوكية وهي "**إحياء!!! علوم الدين**"، ما طعن فيها مالكية المغرب والأندلس، لما شابها جميعها من شوائب لا تتفق ومرجعية الإسلام.

يقول ابن تيمية[10]:

ونجد أبا حامد الغزالي – مع أن له من العلم بالفقه والتصوف والكلام والأصول وغير ذلك، مع الزهد والعبادة وحسن القصد، وتبحره في العلوم الإسلامية أكثر من أولئك (المتكلمين) – يذكر في كتاب: "الأربعين" ونحوه كتابه "المضنون به على غير أهله" فإذا طلبت ذلك الكتاب واعتقدت فيه أسرار الحقائق وغاية المطالب وجدته قول الصابئة المتفلسفة بعينه!، قد غيرت عباراتهم وترتيباتهم. ومن لم يعلم حقائق مقالات العبّاد ومقالات أهل الملل يعتقد أن ذلك هو السر[11] الذي كان بين النبي ﷺ وأبي بكر، وأنه هو الذي يطلع عليه المكاشفون الذين أدركوا الحقائق بنور إلهي!. فإن أبا حامد كثيراً ما يحيل في كتبه على ذلك النور الإلهي وعلى ما يعتقد انه يوجد للصوفية والعُبّاد برياضتهم وديانتهم من إدراك الحقائق وكشفها لهم، حتى يزنوا بذلك ما ورد به الشرع. (...)

---

[9] أنظر ابن العربي: "العواصم من القواصم" (2: 24).

[10] ابن تيمية: "نقض المنطق" ص. 53-55، دار الكتب العلمية 1370 هـ/1951 م، بيروت.

[11] وهذا تنبيه قيم من ابن تيمية رحمه الله. إذ كثيرون ممن يقرءون للغزالي أو ابن عربي الحاتمي أو غيرهما، دون أن يكون مطلعاً على أقوال من سبقوهما من المتصوفة أو الفلاسفة أو العرفانيين، الذين أخذوا منهم، دون أن يشيروا إليهم كمراجع، يظن أن هذا من محض كلامهم، بينما هو سطو صرف وإعادة توظيف.

فصار يعتقد أن تفصيل تلك الجملة يحصل بمجرد تلك الطريق، حيث لم يكن عنده طريق غيرها، لانسداد الطريقة الخاصة السُّنِّية النبوية عنه بما كان عنده من قلة العلم بها (أي بالحديث) ومن الشبهات التي تقلدها من المتفلسفة والمتكلمين، حتى حالوا بينه وبين تلك الطريقة. ولهذا كان كثير الذم لهذه الحوائل ولطريقة العلم، وإنما ذاك لعلمه الذي سلكه، والذي حجب به عن حقيقة المتابعة للرسالة. وليس هو بعلم، وإنما هو عقائد فلسفية وكلامية، كما قال السلف: "العلم بالكلام هو الجهل". وكما قال أبو يوسف (صاحب أبي حنيفة): "من طلب العلم بالكلام تزندق". ولهذا صار طائفة ممن يرى فضيلته وديانته يدفعون وجود هذه الكتب عنه، حتى كان الفقيه أبو محمد عبد السلام[12] – فيما علقه عنه – ينكر أن يكون "بداية الهداية" من تصنيفه ويقول: إنما هو تقول عليه، مع أن هذه الكتب مقبولها أضعاف مردودها، والمردود منها أمور مجملة وليس فيها عقائد ولا أصول الدين.

وأما "المضنون به على غير أهله" فقد كان طائفة أخرى من العلماء يكذبون ثبوته عنه، وأما أهل الخبرة به وبحاله فيعلمون أن هذا كله كلامه، لعلمهم بمواد كلامه ومشابهة بعضه بعضاً، ولكن كان هو وأمثاله – كما قدمت – مضطربين لا يثبتون على قول ثابت، لأن عندهم من الذكاء والطلب ما يتشوفون به إلى طريقة خاصة الخلق، ولم يقدر لهم سلوك طريق خاصة هذه الأمة الذين ورثوا عن الرسول ﷺ العلم والإيمان، وهم أهل حقائق الإيمان والقرآن. (...)

ولهذا كان الشيخ أبو عمرو بن الصلاح يقول، فيما رأيته بخطه:

"أبو حامد كثر القول فيه ومنه". فأما هذه الكتب – يعني المخالفة للحق – فلا يلتفت إليها. وأما الرجل فيسكت عنه، ويفوض أمره إلى الله.

3.2) التوازي المرآتي ما بين تصوف الغزالي والتصوف المسيحي

فإن كان موقف العلماء التقويميين، من معارف الغزالي المختلطة الأمشاج ما عرفت، بعد أن كانوا قد وقفوا على بعض مصادره في مظانها، مما كان قد توفر لهم مترجماً من كتب الصابئة وإخوان الصفا والباطنية عامة، فلم يكن بمقدورهم، ولا باستطاعتهم الوقوف على المصادر التي نقل عنها النقلة، الذين نقل عنهم الغزالي بـــدوره بـــضاعته، لتعذر الإحاطة بذلك.

وهو الوضع الذي تغير اليوم ببروز تلك المصادر الأجنبية في مظانها وتوفرها للباحثين في معينهـــا الأول، ليقيموا مقارناتهم على ضوئها.

قلت:

[12] هو العز بن عبد السلام.

وضمن هذا الإطار الجديد، فقد ذهب بعض المستشرقين الـذين اطلعـوا علـى نصوص الغزالي الصوفية والنصوص الصوفية لبعض آباء الكنيسية المسيحية[13]، إلى القول بوجود تشابه كبير بين النصين، ليس فقـط من حيث الشكل، بل حتى على صعيد المفاهيم والمضمون، إما من خلال بعض الرموز المستعملة، أو المحاور، أو التعابير الأساسية العامة.

ولعل أبرز القائلين بذلك، والذي عضد أقواله بأدلة ملموسة، هو المستعرب الإسباني ميغيل أسين بلاسيوس (Miguel Asín Palacios) (1871 - 1944) فـي كتابـه: "المذهب الروحي عند الغزالي ونزعته المسيحية"[14] حيث انطلق من تحليل مدارس التصوف المسيحية (والتصوف وجد قبل الإسلام بقـرون كتيار فكري في المنطقة)، كما عرفها الشرق وقرر أن التصوف في الشرق المسيحي اتسم عامة باتجاهين:

أولاً: الاتجاه العملي الإرادي:

وغايته الكمال بالحب الإلهي وبالاتحاد به بواسـطة الإرادة.

وهذا التيار هو الأسبق في التاريخ، ويبدأ ب القديس إيرانيوس الليوني الفرنسي (Saint Irenée) 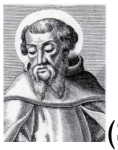 فـي القرن الثاني الميلادي[15] ويستمر من خلال الصوفية السريان أمثـال: أفراهاط (Aphraate) (ت: 345 م)، وإفرام

---

[13] وهو ما لا يتاح عادة للباحثين المسلمين، الذين يقتصرون في مباحثهم على ما نشر باللغة العربية دون تتبع لخيوط الأفكار في مظانها الأجنبية، التي كان يمتح منها بكل حرية الكثير من المتصوفة دون أن يفصحوا عن مصادرهم، فيخيل لقارئ كتبهم لأول وهلة، الجاهل بمصادرهم، أن كلامهم فتح مبين في عالم الأفكار، بينما الحقيقة المرة غير ذلك تماماً، إذ التصوف بصفته دخيلاً على المنظومة الإسلامية ولا يجد مستنده منها، لا شك يجد جذوره في منظومات معرفية أخرى. وهو ما يقوم اليوم مقام البديهة. لذلك فكل الفلسفة التي تطورت كتيار داخل الثقافة العربية هي تيار إغريقي صرف، كما التصوف تيار مخضرم جمع ما بين تراث الهند وتراث المنطقة السابق على الإسلام كما هو ظاهر في الرهبانية الشرقية بالخصوص.

[14] العنوان الأصلي: (La Espirtualidad de Algazel y su sentido Cristiano) الصادر بمطبوعات مدارس الدراسات العربية في مدريد وغرناطة. من أربع مجلدات.

[15] عاش ما بين حوالي 126 م إلى السنوات الأولى ما بعد القرن الثالث الميلادي. وقد ألف كتاب: "ضد الهرطقات" الذي يحتوي على خمس كتيبات صغيرة، الأول منها يصف المذاهب الغنوصية (العرفانية) والثاني ينقضها، تماماً كما سيفعل الغزالي مع الفلاسفة في كتاب "المقاصد" وكتاب "التهافت". أما باقي الكتب الثلاثة فهي عرض للعقيدة المسيحية. وإيرانيوس نموذج للمخرف الأخرق بامتياز. فهو يصور نهاية العالم وكأنه حصل على خطاطة تامة بها، من تلقاء نفسه. ويستعمل حساب الجمل اليهودي للتدليل على بعض دعاواه. فعنده أن المسيح الدجال يحمل الرقم 666، وذلك حسب هلوسته: أن نوحاً كان قد بلغ 600 سنة عند حدوث الطوفان، وأن تمثال نبوخذ نصر البابلي كان يقيس ستين ذراعاً بالارتفاع وستة أذرع بالعرض وبالتالي فعمر المسيح الدجال بمثل هذا الحساب الدجلي هو: 600 + 60 + 6 = 666. 😀 قلت: وبمثل هذا التخريج في الجمع بين ما لا يجتمع والربط بين ما لا يرتبط، يمكن الوصول إلى أية نتيجة حسب الطلب ولا شك!.

(Ephrem) (ت: 378 م)، ويعقوب السروجي، وغيرهم وحتى القرن السادس بواسطة باسيليوس القيصري

(Basile de Césarée) (330 م – 379 م)[16] وآباء الصحراء الممثلين للرهبانية اليونانية البيزنطية.

ثانياً: الاتجاه العقلي: ويجعل الأولوية للتأمل على العمل، ويعد المحبة أو حب الله باباً للعرفان أو التأمل. وهذا التيار يعد وريث الأفلاطونية المحدثة الإسكندرانية، الممثلة باليهودي فيلون الإسكندراني

والغنوصية عامة الممثلين أيام إيرانيوس في القرن الثاني المسيحي بمارقيون (*Marcion du Pont*) (ت: 160 م)[17]

، وبالإسكندرانيين: باسيليدس (Basilide) (عاش بين 125 م 155 م)، وفالنتينوس (Valentinius) (درس بروما ما بين 135 م – 160 م).

ويبدأ هذا التيار بكليمانضس الإسكندراني (Clément d'Alexandrie) (ت: قبل 215 م)

وأوريجانس (Origène) (184 م – 253 م)

[18] في القرن الثالث، ليبلغ ذروته التنظيمية عند أفاجريوس

---

[16] يطلق عليه اسم مار باسيليوس الأكبر. تعلم الطب وتعمد في مدينة قيصرية نحو سنة 356 م وزار أعلام المتزهدين في سوريا ومصر وفلسطين وأسس مركزاً ل "الحياة الرهبانية" ووضع قوانينها التي لا زالت تحمل اسمه إلى اليوم وهي "قانون مار باسيليوس". كانت أهم مشكلة مطروحة لباسيليوس هي كيفية تنشئة الشباب المسيحي بمعزل عن الأخلاق والفلسفة الإغريقية التي يروج لها كتاب وثنيون.. وقد زين تآليفه بأمثلة إغريقة لكن بحياة مسيحية. وقد عارض تفلسف أنوميوس السيزيقي (Eunomius) (320 م - 392 م) الآري المذهب الذي يقول بأن الله يتميز بضرورة الوجود وهو غير مستحيل (أي متحول أو متغير) وغير محدث أو مخلوق، وبالتالي فكلمة الله التي هي الإبن مختلفة تماماً عن الأب وليس مشاركاً له في الجوهر كما يقول أصحاب التثليث. ورد عليه باسيليوس برسالة: "الرد على أنوميوس"

[17] عاصر السيد المسيح ﷺ وحاول إقامة تهجينية فكرية بين العقيدة اليهودية والفلسفة الأفلاطونية. وفي الخمسين كتاباً التي ألفها خلال العقود الأربعة لبداية العهد المسيحي، فقد تصور ابناً بكراً! لله هو "اللوغوس" أو "الكلمة" كوسيط بين بين الألوهية والعالم المخلوق أو الخليقة. ورغم عدم تناسق نسقه الفلسفي إلا أن سيجد تطبيقاته على يد بولص وآباء الكنيسة المسيحية من بعده.

[18] سيؤثر أوريجانس من خلال مدرسته على الآباء الإغريق القبادوقيين (نسبة إلى قيصرية قبادوقية) الثلاثة: غريغوريوس النازيانزي (Grègoire de Nazianze) (329 - 390 م)، وباسيليوس القيصري وأخيه غريغوريوس النيصصي (Grègoire de Nysse) (335 م - 394 م) وفلسفة الأخير في معرفة الله تقوم على أساس أن أول مرتبة من مراتب معرفة الله هي في مرآة الروح الطاهرة، التي تحمل صورة الله. وكل من أراد أن يذهب أبعد من هذه المرحلة فيجب أن يتطهر من كل فكرة ذات أساس حسي. ويكتشف العارف بأن الموضوع المبحوث عنه يتجاوز كل معرفة، وبأنه يصير محاطاً بعدم الفهم كغمامة. فعنده أن الله لا يعرف سوى بالسلب أي بما ليس هو!.

البنطي (Evagre le Pontique) من القرن الرابع الميلادي، وليسود تأثيره على كل الرهبانيـــة الـــشرقية ممثلـــة فـــي القـــديس مكسيموس المعترف (Maximus le Confesseur) (580 م – 662 م) 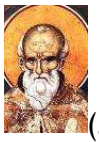 [19]، والقديس يوحنا الدمشقي (54 هـــ/675 م – 122 هـــ/741 م) [20] وغيرهما، وليمتد تأثيره حتـــى القـــرن الرابع عشر الميلادي.

والعمل عند هذا التيار وسيلة لتطهير النفس وتزكيتها حتى تـــصير ك المرآة المصقولة أو "المجلوة" بحسب تعبير الغزالي، التي يتجلى فيها النور الإلهي[21].

ويدرج أسين بلاسيوس تصوف الغزالي ضمن هذا المدرسة، ويقارن بين آرائه وآراء أتباع هذا التيار فـــي الصوفية المسيحية، وخاصة عند إفاجريوس البنطي (Evagrio de Ponto) فيما يخص تـــشابه "المشاهدة" واستعمال "المرآة" عند كليهما، وكذلك التشابه الكبير بين "الاتحاد والحلول" عنـــد الغزالي وبـــين نظـــائره عنـــد أوريجانس وإفاجريوس ومكسيموس، والتشابه بين "كرامات" الغزالي ونظائرها عند الرهبان النصارى.

---

[19] لاهوتي بارز في الكنيسة البيزنطية وخصم لدود لبطريق القدس صوفرونيوس وأصحاب المشيئة الواحدة. وقد لقب بالمعترف لأنه وقع بدمه وثيقة اعترافه بإيمانه!. عمل لدى الإمبراطور هراقليوس واختلى عندما بلغ الخمسين من عمره في دير خريسوبوليس قرب القسطنطينية وترأسه بعد ذلك. حارب وحدة طبيعة المسيح ودافع عن عقيدة الكنيسة الغربية ضد الشرقية. وانتهى به الأمر إلى أن أمر الأمبراطو بقطع لسانه ويده اليمنى ليموت متأثراً بجراحه. وفلسفته تقوم على أن الله هو جوهر فرد والحركة الأولى التي يقوم بها الجوهر الفرد هي توليد الثنائية (Dyade) بانبثاق الكلمة الإلهية الإبن! والثلاثية (Triade) بانبثاق الروح القدس. وله كلام في العبادة لا يجرؤ المرء على ذكره لشناعته. أنظر ترجمته في "الموسوعة الفلسفية" (2: 464).

[20] عمل جده رئيس ديوان المالية في عهد معاوية بن أبي سفيان. وشغل هو وظيفة مهمة في بلاط الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك ثم اعتزل في دير مارسبا بالقرب من مدينة القدس. وكان أول قائل من بين المسيحيين بأن الإسلام ما هو سوى هرطقة مسيحية!.

[21] قارن هذا بما يقوله الغزالي في كتاب "الإحياء" (3: 22)): {فإن قلت: فكيف يتفجر العلم من ذات القلب وهو خال عه؟ فاعلم أن هذا من عجائب أسرار القلب ولا يسمح بذكره في علم المعاملة!!!. بل القدر الذي يمكن ذكره إن حقائق الأشياء مسطورة في اللوح المحفوظ، بل في قلوب الملائكة المقربين، كما يصور المهندس أبنيته على خريطة هندسية ثم يخرجها إلى الوجود على وفق تلك الخريطة، كذلك الله يخرج العلوم من القلب على وفق الحقائق المحفوظة. إما إذا صفا القلب فينعكس فيه اللوح المحفوظ كما في "المرآة"، ويعلم كل ما أوجه الله أو سوف يوجد، علماً شاملاً يجوز كل علوم العقل}. 😉 قلتك ولا تسأل عن مثل هذا التخرص وهذا الرجم بالغيب الذي لم يكن يعلمه الرسول ﷺ ولا تكلم بمثله وعلمه الغزالي!!.

ولاحظ أسين بلاسيوس أن الغزالي يأخذ أيضاً ببعض ما يقول به التيار الأول على غرار يوحنا كاسيانوس (**Jean Cassien**) (*Joannes Cassianus*) (**360 م – 435 م**) 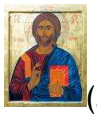 [22] الذي كان يجمع بين التيارين في المسيحية.

قلت:

فهذا التوازي في التجربة الصوفية عند المسيحيين ونظرائهم المسلمين، لا يمكن إرجاعه إلى اشتراك المضامين بين المسيحية والإسلام كدين وتجربة دينية مادام لم يؤثر عن الرسول ﷺ مثله ولا عن صحابته، ولا عن تابعيهم ولا تابعي تابعيهم في الحجاز خاصة، وإنما هو تيار عرفاني (غنوصي) محايث ومستقل، معروف بهجنته وتلفيقيته، وهو أقدم من طروء المسيحية أو الإسلام على المنطقة.

ولم يذهب أسين بلاسيوس إلى حد القول بأن الغزالي قد أخذ هذه الأشياء مباشرة من المسيحيين المعنيين، خصوصاً وأن بعض مؤلفاتهم لم تترجم قط إلى العربية، وإنما لا حظ هذا التشابه الملفت بين ما يذهب إليه الغزالي من مقولات في تصوفه وما يذهب إليه بعض رموز التصوف المسيحي[23].

قلت:

ولن يحتاج المرء بخصوص هذا التشابه، إلى دليل ملموس ومباشر أكثر من هذا، ما دام الغزالي يعد الوعاء النهائي لكل نصوص المتصوفة المحسوبين على الإسلام السابقين عليه، والذين نعلم من خلال نصوص بعضهم أنهم متحوا فعلاً من صوفية الهند و**رهبانية النصارى**، وتأثروا تأثراً مباشراً ب الغنوص (العرفان) أمثال: أبي الفيض ثوبان الملقب بذي النون المصري (**153 هـ – 245 هـ**) ومعرفته ب "الإكسير" في الصنعة الكيميائية

---

[22] قام برحلة سنة 378 م إلى فلسطين حاجاً وعاش حياة رهبانية في بيت لحم. ثم قصد مصر سنة 380 م وزار رهبان صحراء جنوب الإسكندرية وبقي هناك حوالي عشرين سنة، ثم تم طرده منها مع بعض الرهبان فلجأ إلى القسطنطينية حيث وسم شماساً. ثم اضطر إلى المغادرة إلى روما سنة 404 م وبقي عشر سنوات مع البابا. وفي سنة 415 توجه إلى البروفانس الفرنسية وأسس دير القديس فيكتور في مارسيليا. ويعد كاسيانوس المؤسس لمذهب أنصاف البيلاجيين، لأنه أصر على التوفيق بين النعمة الإلهية وبين إرادة الإنسان وإيمانه. أنظر ترجمته في "الموسوعة الفلسفية" (2: 230).

[23] أنظر: عبد الرحمن بدوي: "أوهام حول الغزالي" ص. 248-249، ضمن ندوة: "أبو حامد الغزالي: دراسات في فكره وعصره وتأثيره" منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم 9.

التي تروم تحويل المعادن الخسيسة إلى ذهب. وهي معرفة غنوصية محضة[24]، أو ب الحلوليات الهندية والمسيحية، كما عند أبي عبد الله الحسين بن منصور الحلاج (244 هـ – 309 هـ) وغيرهما، حتى أن أكثر ما يورد أبو نعيم الإصبهاني في كتابه: "حلية الأولياء" من تراجم وسير لبعض رموز الصوفية المشاهير، لا يخرج عن هذا المنحى المبتذل الآخذ عن رهبان النصارى وأصحاب الصوامع!.

بل، إن مجرد وجود مثل هذا التشابه في التصورات يلقي بظلال كثيفة على مثل هذا الموروث، الذي لا يتصف بوقع الحافر على الحافر، كما قد يُظن!، وإنما هو متح مباشر، تنتفي عنه مطلقاً صفة الإسلامية، خصوصاً وأن لا جذور له عند أهل الحجاز، ولا عرفه الصحابة ولا التابعون رضوان الله عليهم بحال، والذين لن يتسامعوا بشيء اسمه "التصوف" سوى من العراقيين وفي القرن الثاني الهجري كما يروى عن جعفر الصادق (ت: 148 هـ) والإمام مالك (ت: 179 هـ) رحمهما الله[25].

إنتهى وتليه الحلقة الثالثة
عندما دخل الغزالي بطن الفلسفة ولم يستطع الخروج منها

[24] تجاوزت الغنوصية الإطار الهرطقي الذي كانت تنعت به من طرف آباء الكنيسة، الذين لم يكونوا أقل هرطقة ممن يحاربون!. وذلك أن الغنوصية جمعت في نظام فلسفي عناصر متنافرة من ديانات سابقة عرفها الشرق وخلطت ومزجت بينها جميعاً كوحدة. وعندما نزل الإسلام بساحة المنطقة لجأ أصحاب هذا التيار إلى التلون بلون الإسلام الذي فرض منظوره على الجميع، فاضافوه إلى منظومتهم على ما اعتادوا لقرون وقرون. أنظر وصفاً لهم عند: ويلتر. ج. في "تاريخ الطوائف المسيحية" في:
(Welter, G., 1950: " Histoire des Sectes Chrétienne", p. 31, ed. Payot, Paris.)

[25] أنظر كتابنا: "التأويلية الإسلامية في ماضيها وحاضرها: آفاق المستقبل".